

مقابر الأحياء

في المستوفد

للاستاذ م. محمد عبد الكريم

انبلج صبح يوم الجمعة الماضي، وبدأت الحياة تدب في أرجاء الحى. وقفت في شرفة الدار استقبل اليوم واجتلى طلعه. أشاهد نور الاشراق تكشف عن كون صورته الخالق فأبدعه. أسأل النفس: ترى ما عسى أن ينال الانسان من نعم أوفى وأعظم مما حباه الله به، وما لنا نشكو وقد أنا من كل ما سالناه

وفيا أنا ساج في تفكيرى اذ طرق الباب طارق قلت. من؟ قال: (الزبال). فتحت للرجل فسارع الى وعاء القمامة يفرغ ما به في زنبيله واستدر حاله إشفاق فقلت " كل يوم في هذه يا منصور؟ اليوم عطلة يا شيخ .. قال: لمن؟ قلت: للناس كلهم .. فأجاب بصوت خافت: إلا الزبالين".

مضى الرجل وعدت إلى الشرفة أتأمله وهو يتعثر في مشيته وقد بدا ثوبه الخلق بين حلال السائرين كما يبدو الكوخ الحثير بين قصور الموسرين .

وغاب منصور عن النظر ولكن مشهده لم يبرح مخيلتى حتى أيقظ رغبة طالما جاشت بها النفس، هي دراسة شؤون البائسين من مواطنينا عن كتب والكشف عن أدوائهم والمرض لأسباب إصلاح حالتهم .

وسارعت الى المشجب فارتديت سترتى وخرجت حتى إذا بلغت ظاهر الدار استوقفتنى أئحى الصغبر يسألنى: أين سامضى يومى، قلت فى المستوفد. وكانت إجابة غريبة أضحكت الفتى كثيرا ...

وحملتنى السيارة العامة الى قلب بولاق، حتى إذا بلغت حى الجامع المعلق تجرلت ويمت شطر مستوفد كبير كنت أمر به أيام أن كانت لنا مصالح بذلك الحى .

وبدت طلابع المستوفد عن بعد: فهذه عربات نقل الفول مصفوفة على جانب، وهؤلاء العمال يتعاونون على نقل ما أفرغته لهم عربة النظافة العامة الى داخل المستوفد .

حيث القوم حين بلغتهم ، فردوا التحية ، حتى اذا رأوني قد توسطتهم ألقوا بالفؤوس والزناجيل ، ونظروا الى نظرة ساؤل وارتياب ، ولم أشأ أن أطيل ريتهم ، فبادرت بالافصاح عن غايي ، وصحبت الرئيس الى داخل المستوقد .

المستوقد وعمله :

وقد يكون من المناسب قبل أن أعرض لحال « الزبالين » كما رأيته أن أذكر للقارئ شيئاً عن المستوقد وإن كان أمره لا يخفى عن البعض ، فهو فضاء مسور يجاور حمام السوق ويشتمل على بناء صغير به تنور كبير يعلوه خزان ماء ، وتجاور التنوره عميقة ترص فيها قدور المول والقمح والذرة لطهيها . وعمل المستوقد الرئيسي اعداد الماء الساخن لحمام السوق ، وكان الماء الى عهد قريب يرفع بالساقية من بئر في كل مستوقد ، غير أن النظام الصحي قضى بدم الآبار واستعمال الماء المكرر وحده .

وطهى الفول والحبوب عمل آخر له أهميته وهو مورد الرزق لجميع من في المستوقد .

ويشغل فضاء المستوقد بالقمامة التي تفرز به ، اذ يوضع الوقود في جانب والصفائح النائف في جانب آخر ، كما تجمع المظام وحدها ليعمها لمن يتجرون بها .

أما الرماد الأسود المتخلف من الحريق وهو المهروف "بالأسرمل" فيكوم وحده ليوزع على الأهلين لاستخدامه في البناء وفي الزراعة .

الحياة في المستوقد :

لا أحسبني قد أخطأت التقدير حين وضعت فئة " الزبالين " في رأس قائمة الباسين المنفقين الى الإصلاح ، وحسبى أن أعرض للحياة اليومية في المستوقد ليقف القارئ على حقيقة حال هذه الفئة البائسة .

فالزبالون أو حارقو القمامة طائفة من العمال يفدون من الواحات ، وقد امتازت الواحات الداخلية بأنها مصدرهم الأكبر ، وهم يهبطون على المستوقدات في العواصم تاركين نساءهم وأولادهم بواحاتهم .

وإيس اختيارهم لهذا العمل الشاق إلا وليد الضرورة ، فهم يجهلون الزراعة ولا يحسنون صناعة ، فلا مجال للعمل في غير القمامة .

وليس للزبال أجر أو راتب معلوم، فهو لا يتقاضى من صاحب الحمام الذى يتبعه المستوقد شيئا لقاء تسخينه الماء اللازم للحمام . انما يكفى صاحب العمل بمنحه جزءا من أجور طهى القدور ، قدور الفول المدمس وغيره . ويتراوح ما يناله الزبال من هذا بين قرشين ونحوه قروش فى اليوم .

ولعانا ندرك مبلغ ما تقاسيه هذه الفئة من ضيق اذا ذكرنا أن شطرا كبيرا من هذا الأجر يبعث به إلى الواحات لينفق على أسرة الرجل من نساء وأولاد .

ويقوم طعام الزبال على الشاي الأسود الذى توارث إدمانه والذى ينفق فيه جانبا كبيرا من دخله الضئيل . وقدشكا إلى الزبالون مر الشكوى من ارتفاع ثمن السكر والشاي ، وقال لى أحدهم ” أعطونا شايًا وخبزًا وجلبابًا ولننا نطلب بعد ذلك أجرا إلا العناية بأهلينا فى الواحات“ .

ويتناول الزبال أيضا الفول المدمس وبعض الجبن أما اللحم فلا يراه إلا فى المواسم ، وهم يشترونه من باعة متجولين ومن النوع المعروف بلحم الرأس ورطله بسبعة مليات ونصف المليم .

الحالة الصحية فى المستوقد :

على أن سوء الحالة المادية لهذه الفئة يتضاعف إذا قيس بحالتهم الصحية ، ويكفى أن نعلم أن أكثر هؤلاء المساكين يقيمون الليل والنهار فى هذه البؤرة ، فن تسعة عشر درست حالهم بيت عشرة فى المستوقد على القمامة الجافة فى عربات نقل الفول ، ويشترك أربعة فى حجرة واحدة أجرها عشرون قرشا والحصة الباقون يقيمون مع أمراتهم فى مساكن خاصة ، وقد أتى ثلاثة منهم بزوجاتهم من الواحات والاشان تزوجا من واحيتين فى مصر .

ولا أرانى فى حاجة إلى الإشارة إلى فعل القمامة فى صحة هؤلاء البائسين ، فللقارئ أن يتصور أثر روائح القمامة فى شخص يتخذها فرشًا وسريرا ، وهو طول يومه بين هذه الجراثيم وفى دخان التنور . وقد بدا الأثر واضحا فى أعينهم التى لا تشع إلا نورا ضئيلا جعلهم أقرب إلى العميان منهم إلى المبصرين .

أما أجسامهم فضامرة هزيلة من أثر العمل المضنى والهواء الفاسد والغذاء السيئ .

وقد شهدت القراع ظاهرا فى ربوس أربعة منهم ، ولا عجب إن وسادة من قمامة كافية لترع جادة الرأس لا الشعر وحده .

الأمية والجهل :

لم أجد بين من شاهدتهم واحدا يعرف الألف والباء، فكلمهم أميون، وهم فوق ذلك جاهلون بكل ما في الوجود. وقد استطلعت رأي أحدهم في الحرب فقال "ربنا ينصر السنوسى..." قلت وما شأن السنوسى قال "مش هوّه اللي يجارب في الكفار..." .
وللتروجين منهم أطفال يقضون اليوم بين البيت والمستوقد، وحالتهم لا تكاد تختلف عن حالة آبائهم في شيء .

في أوقات الفراغ :

تزيد ساعات العمل في المستوقد على عشر ساعات . وقد لاحظت أن بعض الزباليين يستمنون على العيش بموارد أخرى، فمنهم من يمر على المنازل المجاورة يجمع منها القمامة نظير جعل صغير يتناضاه كل شهر ، ومنهم من يجوب الشوارع بقدر الفول والبليلة ، وقد تغريه هذه عن مشاركة اخوانه في عملهم فيتخذ بيع الفول مهنة له .

على أن الزباليين رغم ما يلاقونه من نصب ، يعنون كثيرا باللهو والسمر في أوقات الفراغ وهم لا يتشون المقاهى وإنما يتضون مساءهم في المستوقد وعلى الوقود والتراب الأسود مبتظمين في حلقة كبيرة يستمعون إلى مزمار الغاب وهو شبيه بالأرغول إلا أنه أقصر منه طولاً ، حتى إذا انتهى الزمار هلل الحاضرون من رجال وأولاد وصققوا حائنين " هيه ... هيه ... هيه " ويظنون يرددون هذه الكلمة وقتاً طويلاً .

ويعد « ريس الجورة الشاي » للجمعين ، ويقدمه لهم في براد كبير وأكواب حتى إذا نفذ السائل صب على نقايا الشاي ماء من جديد وأعيد غليه وتقديمه ، وهذه الطريقة يكفى القليل من الشاي الحفل كله .

وفي فجر أيام الجمعة بوجه خاص يقصد الزباليون إلى الحمام الذي يقدونه بالماء الساخن حيث يذيون في المنفطس طبقات الأقدار والجرائم السالقة بأجسامهم . ولا أود التعرض الآن للحمام والتحدث عما فيه فسوف أفرد له بحثاً خاصاً في هذا المكان

العلاج كما أراه :

أرى لمشكلة المستوقدات حان : الأول حاسم ، والآخر مؤقت يخفف البلوى ولكن لا يزيلها .

فالعلاج الحاسم هو إغلاق المستشفيات والحمامات في كل مكان واتباع النظم الحديثة التي تتبع في كل بلاد العالم المتمددين للخلاص من التماسه بتحويلها الى سداد عضوى بواسطة مواقد ميكانيكية تقام خارج المدن .

وليس هذا العمل غربيا عن بلادنا ، فلدينا موقد ميكانيكي أقامته مصلحة التنظيم بجهة ابن السعود، وهو يؤدي خدمة كبيرة، إذ يمد المذبح بالماء الساخن ويحول الوقود بعد حرقه إلى سداد عضوى تشتريه شركة السداد بمبلغ كبير ، ولسنا ندرى لم لاتعمم هذه المواقد في كل مكان وزرع أنفسنا وزرع المشتغلين بهذا العمل من شره وضرره .

ولكى لا يكون في هذا العلاج حرمان لطائفة الزبائن من مورد رزقهم يرى أن يقصر العمل في المستشفيات الميكانيكية على الزبائن وحدهم ، ومن زاد على الحاجة تبينه مصلحة التنظيم فيما يحول لديها من أعمال الكنس والرش .

وإلى أن تقوم الحكومة بهذا العمل أو تسنده إلى شركة تؤلف لهذه الغاية نرى :

أولا - أن يمنع المبيت في المستوقد منعا باتا .

ثانيا - أن يكون تفرغ عربات النظافة العامة في داخل المستوقد لاني عرض الطريق كما رأيت في مستوقدى الواسطى والجامع المعاق . وإذا كان المدخل لا يتسع للعربة فتكلف وزارة الأوقاف ، وهي التي تضع يدها على جميع المستوقدات ، بتوسيع المداخل .

ثالثا - أن تعين الحكومة طائفة الزبائن ماديا بأن تدفع لهم جعلاً معيناً عن كل عربة من عربات النظافة التي يكلفون بحرقها لما في عملهم هذا من خدمة للصحة العامة .

وأخيرا ، أن تولى الحكومة الواحات الداخلة شيئا من العناية بتمية موارد الرزق فيها ، لأن تضروب هذه الموارد هو سبب هجرة هؤلاء المساكين والتجاههم إلى عواصم القطر .

وبعد ، فهذا موطن من مواطن الضعف في بنياننا الاجتماعى نصروره للناس ، وكل ما نرجوه أن تنال هذه الفئة البائسة من أبناء الأمة الدنياية الواجبة وأن تمتد يد الاصلاح إلى المستوقد فتريله أو تنظمه تنظيما يبق صحتنا ويليق بكرامتنا .

م. محمد عبد الكريم